الفصل الخامس

الشعر الجاهلي ومدى وثاقته

لم تكن كل هذه الذخائر الأدبية والكنوز الشعرية في العصر الجاهلي سليمة كلّ السلامة أو مبرّأة كل البراءة من الأدب الدخيل، الذي حمل على هذا الشعر في عصور متأخرة، أو من اللون الفاسد الذي لفقته الأهواء والأقاصيص في أزمنة تالية.

ولكي يكون الباحث على بَيِّنةٍ من الأمر حين يفيد من مصادره،عليه أن يقف على قضية الشكّ في الشعر الجاهلي،ويتعرف على الحقائق التي أقرّها ثقات القدماء ونبه إليها المُحْدَثون، حتى يضع لنفسه بعد ذلك منهجاً يعرف عن طريقه صحيح الشعر من باطله.

وقد تناول بعض الدارسين المُحْدَثين من المستشرقين والعرب قضية الوضع في الشعر الجاهلي، موسعين في جوانبها،ورافدين آراءهم الواهية بغير قليل من الزُّبْرِجِ الخادعِ والبَهْرَجِ الأخّاذِ حتى انتهوا إلى رفض هذا الشعر جملة،وعلى نحو ما نعرف عن الدكتور مرجليوث المستشرق الإنجليزي، وربيبه أو صنيعته الدكتور طه حسين اللذين أثارا عثير الشك في الأدب الجاهلي إلى درجة أوهمت الكثيرين أن هذه القضية بنت أفكارهما، وأن القدماء لم يعرضوا لها في قليل أو كثير.

والحقّ أن قضية الانتحال بمعناه الواقعي لم تكن أمراً خافياً عن أعين القدماء، بل كانت واضحة أمامهم كلّ الوضوح. وقد أشاروا إلى ذلك مراراً وتكراراً، وحاولوا جاهدين أن ينفوا عنه الزائف الذي وضعه الوضّاعون تحت ستار كثير من المقاييس التي لا تقف على أساس.

وقد بلغ من حرص القدماء في هذا الشأن أن أهمل ثقاتُهم كلَّ ما روي عن الشعراء المتهمين بالوضع أمثال حماد وخلف، وكان الأصمعي خاصّة لهم بالمرصاد، كما كان المفضل الضبيّ من قبله، وتتابع الرواة الأثْبات بعدهما يحققون ويمحصون في التراث[1].

---

(١) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص١٦٤.

ولقد كان محمد بن سلاّم الجُمَحي "المتوفى ٢٣٢هـ" أول من بحث قضية الانتحال في الشعر الجاهلي بإسهاب وإفاضة في ثنايا كتابة "طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين" وقد عزا أسباب الوضع إلى عاملين رئيسين: عامل القبائل التي كانت تتزيد في شعرها للتزيدَ في مناقبها، وعامل الرواة الوضَّاعين. حيث قرر أن بعض القبائل كانت تتزيد في أشعارها، وتنحل شعراءها شعْراً لم يقولوه، وذلك حيث يقول: " لما راجعت العربُ روايةَ الشعر وذكْرِ أيامها ومآثرها، استقلَّ بعضُ العشائر شعْرَ شعرائهم وما ذهب من ذكْر وقائعهم، وكان قَوْمٌ قَلَّتْ وقائعُهم وأشعارُهُم، وأرادوا أن يَلْحَقُوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواةُ بعد فزادوا في الأشعار"(١).

كذلك انتقد ابن سلاّم بعض الرواة الذين اشتهروا بالوضع مثل حماد الراوية الذي قال فيه: "كان أوَّلَ مَن جمع أشعارَ العرب وساق أحاديثَها: حَمّادٌ الراويةُ،وكان غيرَ موثوق به. كان ينحَل شعْرَ الرجلِ غَيرَه،ويَنْحله غيرَ شعره،ويزيدُ في الأشعار"(٢).

كما اتهم رواة السِّيَر والأخبار والقصص من مثل ابن إسحاق راوي السيرة النبوية، إذ كانت الأشعار تُصْنَعُ له ويُدخلها في سيرته دون تحرّز أو تحفظ، حتى إنه روى شعراً لقوم عاد وثمود. وقد نقده ابن سلاّم نقداً لاذعاً،حيث قال(٣): "كان ممن هَجَّنَ الشعر وأفسده وحمل منه كلَّ غثاء محمدُ بن إسحاق مولى آل مَخْرَمة بن المُطَّلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسِّيَر، فقبلَ الناسُ عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: "لا علمَ لي بالشعر إنما أُوتَى به فَأَحْمِلُهُ، ولم يكن ذلك له عذراً فكتب في السير من أشعار الرجال ـ الذين لم يقولوا شعراً قطُّ ـ وأشعار النساء فضلاً عن أشعار الرجال!. ثم جاوز ذلك إلى عادٍ وثمودَ، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: مَن حَمَلَ هذا الشعر ومن أدَّاه منذ ألوف السنين؟ والله يقول: ﴿ **وأنّه أهلكَ عاداً الأُولى وثمودَ فما أَبْقَى** ﴾ [النجم: ٥٠-٥١] وقال في عاد: ﴿ **فهل تَرَى لهم مِنْ باقيةٍ** ﴾[الحاقة: ٨] وقال: ﴿ **وعادٍ وثمودَ والذين مِنْ بَعْدِهم لا يَعْلَمُهُم إلا اللهُ** ﴾[إبراهيم: ٩].

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلاّم ص١٥ تحقيق الأستاذ مصطفى عبد الجواد عمران، المطبعة العربية ـ الطبعة الثانية ١٩٦٨م.

(٢) المرجع السابق ص١٦.

(٣) المرجع نفسه ص٦.

وقد لاحظ ابن سلاّم أن بعض أبناء الشعراء الأعراب كانوا يفدون إلى المدن ويستنشدهم الرواة شعرَ آبائهم فينشدونهم، فإذا نَفدَ ما لديهم زادوا في الأشعار، وقال في ذلك[1]: "أخبرني أبو عبيدة أن ابنَ داود بن مُتَمِّم بن نُوَيْرة قَدِم (إلى) البصرة في بعضِ ما يَقْدَمُ له البدويُّ في الجَلَب والميرة، فنزل النَّحيت[2] فأتيتُه أنا وابنُ نُوحٍ العُطَارِدِيُّ، فسألناه عن شعر أبيه متمِّم، وقمنا له بحاجَته وكفيناه ضَيْعتَه، فلما نَفدَ شعرُ أبيه، جعلَ يزيدُ في الأشعارِ ويَصْنَعُها لنا، وإذا كلامٌ دون كلامِ مُتَمِّم، وإذا هو يَحْتَذي على كلامه فيذكُر المواضعَ التي ذكرها متمِّم، والوقائع التي شهدها. فلما توالى ذلك علمنا أنه يَفْتَعِلُه".

وإذا كان ابن سلام قد رأى أن هناك في الشعر ما هو مُختلَقٌ ومُنْتَحَلٌ، وأن في الرواة مَن هو ثقةٌ عدلٌ، ومَن هو مُتّهم، فقد قرر أن أهلَ العلم والدراية لم يكن ما زاده الرواة ليشكل عليهم، ولا ما وضعه الوضّاعون، ومن ثَمَّ وجب علينا أن نقبلَ ما قبله الثقاتُ، وأن نرفض ما رفضوه، وفي ذلك يقول: وفي الشعرِ المَسْمُوعِ مُفْتَعَلٌ موضوعٌ كثير لا خيرَ فيه، ولا حُجَّةَ في عربيَّته، ولا أدبٌ يُستفادُ به، ولا معنى يُسْتخرج منه، ولا مَثَلٌ يُضْرب له، ولا مديحٌ رائعاً نراه، ولا هجاءٌ مُقْذعاً تحسه ولا فخرٌ مُعْجباً نجده، ولا نسيبٌ مُسْتَطرَفاً نلمسه، وقد تداوله قومٌ من كِتابٍ إلى كتابٍ، لم يأخذوه عن أهلِ البادية، ولم يَعْرِضوه على العلماء. وليس لأحدٍ - إذا أجمع أهلُ العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه - أن يَقْبَل من صحيفةٍ، ولا يُرْوَى عن صُحُفيٍّ. وقد اختلفَت العلماءُ في بعض الشعر، كما اختلفت في بعض الأشياء، أما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج عنه[3].

فهو هنا يعتقد بوجود دخيل في الشعر، قد وُضِعَ وصُنِع صنعاً. ونُسب إلى غير قائليه، وأن هذا الدخيلَ لا قيمة له، ومن الممكن تمييزُه ومعرفتُه، لخُلُوِّه من سمات الروعة والجمال في شتى الأغراض الشعرية، وأنه لم يكن مما رواه أهلُ الثقة عن مصادرَ موثوقٍ بها من أهل البادية. ويرى كذلك أن الثقات من العلماء والرواة ينبغي أن يكونوا محلّ ثقة منا، فنقبل منهم كلّ ما ارتضوه، ونرفض كلّ ما رفضوه.

---

(١) طبقات الشعراء ص١٦.

(٢) النَّحيت: من قرى البصرة الصغيرة الدانية.

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ص٥ - ٦ تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر ط دار المعارف بتصرف.

ولا شك أنه على حقّ في دعوته إلى الاعتماد على مَن وُثِقَ به من الرواة الذين قاموا بجمع الأدب وتدوينه، فإذا كان هؤلاء أهلاً للثقة والتصديق في عصرهم، فهم أولى بذلك في العصور التالية، وخاصّة في عصرنا الحاضر،فلقد كانوا قريبين من زمن هذا النتاج الأدبي الذي قاموا بجمعه وتدوينه، وكان بينهم مَن كان يعرف الجاهليين، أو كان على صلة بمن يعرف الجاهليين، على أن الظروف التي أحاطت بالعلماء والرواة في زمن الجمع والتدوين ـ وحملتهم على التنافس في الدقة والتحري تستدعينا أن نجعلهم محلّ ثقةٍ في جميع ما قبلوه، ما لم يقم لدينا الدليل القاطع على خلاف ذلك، ولا أظن دليلاً مثل ذلك سيحدث ـ إلا إن كان معجزة لطول العهد بين زمن هذا الأدب، وبينا الآن(١).

فالشعر الجاهلي فيه المُنْتَحَلُ الذي لا سبيل إلى قبوله، وفيه الموثوقُ به الذي لاشكّ فيه، وهو على درجات، منه ما أجمع علية الرواة، ومنه ما رواه ثقات لا شك في ثقتهم وأمانتهم، من مثل المفضل الضبي والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء، وقد يكثر ذلك الشعر المنتحل،ولكن الوضع لا يخرج بنا إلى دائرة إبطال الشعر الجاهلي عامة، وإنما يدفعنا ذلك إلى بحثه وتمحيصه مهتدين بما يقدم لنا الرواة الأثبات من أضواء تكشف الطريق(٢).

ومع أن قضية الانتحال كانت واضحةً كلَّ الوضوح أمام القدماء ـ كما أسلفنا ـ رأينا الدارسين المُحْدَثين من المستشرقين والعرب يأبون إلا أن يعودوا إليها بالحديث المريب والتفصيل العجيب!!! ، فبدأ النظر فيها "نولدكه" سنة ١٨٦٤م وتلاه " آلوارْدَ" حين نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين: امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنترة، مُبْدياً شكَّه في صحة الشعر الجاهلي عامة، منتهياً إلى أن عدداً قليلاً من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته، مع ملاحظة أن شكّاً لا يزال يلازم هذه القصائد الصحيحة في ترتيب أبياتها وألفاظ كل منها. وتابع كثيرٌ من المستشرقين "آلوارْدَ" في موقفه الحذر من قبول كلّ ما يُروى للجاهليين، أمثال "موبر وباسيه وبروكلمان"(٣).

---

(١) تاريخ الأدب الجاهلي للدكتور علي الجندي ١/٢٥٦.

(٢) العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص١٦٦.

(٣) المرجع السابق ص١٦٦. وانظر مصادر الشعر الجاهلي ص٣٥٢ ـ ٣٧٦ حول آراء المستشرقين.

على أن هؤلاء جميعاً لم يبلغوا في نظرية الانتحال من الإسراف في الشّكّ ما بلغه المستشرق الإنجليزي، "مرجليوث" الذي ذهب إلى رفض الشعر الجاهلي جملة وتفصيلاً، وذلك في بحث له - بمجلة الجمعية الملكية الآسيوية - عدد يوليو سنة ١٩٢٥م - تحت عنوان "أصول الشعر العربي" - انتهى فيه إلى أن هذا الشعر الذي نقرؤه على أنه شعر جاهلي إنما هو شعر منظوم في العصور الإسلامية ثم نَحَلَه الوضّاعون المزيِّفون لشعراء جاهليين. وقد ساق مرجليوث نوعين من الحُجَج الواهية - التي يظنّها أدلة - في محاولته إثبات بطلان الشعر الجاهلي ، أولهما خارجي والآخر داخلي(١).

أما في النوع الخارجي فقد أقرَّ مرجليوث أولاً بوجود الشعر الجاهلي قبل الإسلام، لأن القرآن أشار إليه، وفيه سورة باسم "الشعراء" وقال: إن خصوم النبيِّ وصفوه بأنه كان شاعراً مجنوناً، وتأتي في القرآن ثلاث ألفاظ هي: كاهن ومجنون وشاعر ويزعم مرجليوث أن هذه الألفاظ مترادفة بمعنى واحد، ويستنتج من ذلك أن من عادة الشعراء آنئذٍ التنبؤ بالغيب!! ... وأن الشعر كان غامضاً مبهماً!

ثم يذهب إلى أنه إذا كان المقصود بالشعر هو هذا الشعر الذي عُرِف في الأدب العربي بعد ذلك، فإننا نقع في حيرة من الأمر،وذلك أن محمداً الذي لم يكن يعرف الشعر كان يدرك أن ما يُوحى إليه ليس بشعر، بينما كان أهل مكة،وهم لا شكّ يعرفون الشعر إذا ما سمعوه أو رأوه - يظنون كلامه شعراً!. ثم يقول: " ربما كان ما تبيح لنا الشواهد القرآنية قوله هو أنه كان قبل الإسلام بعض الكهان من بين العرب وأنهم كانوا يعرفون باسم "الشعراء" وكانت لغتهم غامضة مبهمة،كما هو الشأن دائماً في الوحي.

ثم يتعرض لمسألة نشأة الشعر الجاهلي ويقرر أنها مسألة غامضة،وأن آراء القدامَى فيها متباينة، فقد عزا بعضُهم شعراً عربياً إلى آدمَ وإلى عهد إسماعيل، ولكن الرأي السائد هو أن الشعر بدأ قبيل ظهور الإسلام بأجيالٍ قليلة، والذين يرون هذا الرأي يجعلون مهلهلاً أو امرأ القيس، أول الشعراء، ومع ذلك أوردوا شعراً لشعراء سبقوهم بزمن طويل، وأن الشعر الذي وصل يشير في مواطن كثيرة إلى وجود الكتابة، فلا بد أن يكون عرب ما قبل الإسلام - الذين كانوا يستخدمون لغة القرآن ! كانوا مجتمعاً أدبياً عالياً.

---

(١) مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ص٤١٧ - ٤٤٩ وقد لخص الدكتور ناصر الدين الأسد مقالة مرجليوث في كتابه «مصادر الشعر الجاهلي» ص٣٥٣ - ٣٦٧ ومنه أفدنا ونقلنا.

ويتحدث عن حفظ الشعر الجاهلي فيقول: "لو فرضنا أن هذا الشعر حقيقي فكيف حُفظ؟ لا بدّ أنه حفظ إما بالرواية الشفهية وإما بالكتابة. ويبدو أن الرأي الأول "أي الرواية الشفهية" هو الذي يذهب إليه المؤلفون العرب" ثم يشكّ - كعادته - في أن يكون الشعر الجاهلي قد حُفظ بالرواية الشفهية،لأن ذلك يقتضي أن يكون هناك رواة عملهم فقط حفظ الأشعار،والإسلام يَجُبُّ ما قبله، والقرآن قد ذكر أن الشعراء يتبعهم الغاوون، فحديث القرآن عنهم فيه قسوة عليهم واحتقار لهم، فهذا ما يدعوهم إلى نسيان الشعر، إذا كان ثَمَّةَ شعر جاهلي حقيقة ثم إن القصائد تصور انتصارات القبائل بعضها على بعض، وأن الإسلام يحثّ على نسيان تلك الحوادث، لأن هذه القصائد تثير الضغائن الجاهلية.

وإذا كان الشعر الجاهلي لم يُنْقَل بالرواية الشفهية التي يزعم مرجليوث أنه دحضها،فلم يبقَ إلا طريق الكتابة، وبعد أن يقرّ بوجود الكتابة ينفي أن يكون الشعر قد نقل بطريق الكتابة، وذلك أن القرآن ينفي أن يكون للجاهليين كتابٌ يقرؤونه،وأن الأدب يتدرج من الصور الشّاذّة غير المألوفة إلى الصور المألوفة المنتظمة، وأن الشعر الذي وصل ويُزْعَمُ أنه جاهلي إنما هو مرحلة تالية للقرآن لا سابقة عليه، لأن الأساليب الأدبية العربية سواء النثر المسجوع والشعر، فيها مشابه من أسلوب القرآن، وفي القرآن نثر مسجوع، وفيه أيضاً أمثله على كثير من الأوزان الشعرية والتدرج من الأسلوب القرآني إلى الأسلوب المنتظم يبدو متمشياً مع المألوف.

ثم يجمع الأخبار والروايات التي ذكرها الرواة في اتهام بعضهم لبعض.

ويجرح هؤلاء الرواة من مثل : حماد، وجناد، وخلف الأحمر، وأبي عمرو الشيباني وابن إسحاق صاحب السيرة، والمبرد، ويتساءل عن مصادر هؤلاء إذا كان الإسلام قد حارب الوثنية وناصبها العداء، وكان الشعراء لسان تلك الوثنية الناطق، فمَنْ أولئك الذين حفظوا الشعر ثم نقلوا إلى غيرهم تلك الأشعار التي تنتسب إلى نظام أبطله الإسلام؟ ولكن مرجليوث لا يطمئن إلى ما انتهى إليه، فيعود فينفي ما قاله أولاً بقوله: "إن هؤلاء الشعراء لم يكونوا كما يبدو عليهم لسان الوثنية الناطق، بل كانوا مسلمين في كلّ شيء ما عدا الاسم".

وأما في النوع الداخلي فيرى مرجليوث أن هذا الشعر الجاهلي فيه إشارات إلى قصص ديني ورد في القرآن، وفيه كلمات إسلامية مثل الحياة الدنيا، ويوم القيامة

والحساب، وبعض صفات الله... ولا نجد في الشعر جَوَّ الآلهة المتعددة الذي نجده في النقوش. وربما كان هذا هو الذي أوحى للأب لويس شيخو اليسوعيّ نظريته في أنهم كانوا جميعاً نصارى[1]، وإن تكن هذه النظرية غير صحيحة... ثم يقول : "وحيثما يكون النصاري تكون لهم كتبهم المقدسة، وتتأثر لغتهم وأفكارهم تأثراً كبيراً بتعبيرات الأناجيل ورسائل الحواريين والأناشيد، ويتخذ شعرهم في الغالب طابع الترانيم، ولكن في الشعر ـ الذي يفترض أنه شعر جاهلي ـ ندرة كبيرة في الإشارات إلى الكتاب المقدس وتعاليم المسيحية حتى لدى الشعراء الذين ازدهروا في بلاط مسيحي... وعلى الرغم من أن الشعراء الجاهليين يُقْسِمون كثيراً، فهم لا يكادون يختلفون في قسمهم بالله،وهو قسم شائع حقّاً في دواوينهم" ثم يستنتج مرجليوث بعد ذلك : أن الديانه الوحيدة التي يصح أن يعتنقها هؤلاء الشعراء الجاهليون هي الإسلام!!

وقد تعرض مرجليوث للحديث عن اللغة الجاهلية من حيث اختلاف اللهجات بين القبائل، والاختلاف بين لغة القبائل الشمالية واللغة الحميرية الجنوبية حيث يقول: " ولو أننا افترضنا أن أثر الإسلام في قبائل بلاد العرب وحَّد لغتهم... فإنه من الصعب أن نتصور أنه كانت ثَمَّة لغة مشتركة ـ تختلف عن لغات النقوش ـ منتشرة في أنحاء شبه الجزيرة، كلها قبل أن يهيئ الإسلام هذا العنصر الموحد" . وإذا كان هناك شعراء في بلاد الجنوب فلا بُدّ أنهم نظموا بإحدى اللهجات الجنوبية.

وحيث يقول: " وكما أن وجود الأفكار الإسلامية في الآثار المقطوع بجاهليتها دليل على وضعها وزيفها،نرى أن استخدام لهجة، جعلها القرآن لغة فصحى، أمراً يدعونا إلى أن نشكّ فيها طويلاً... ويبدو أن المسلمين الذين جمعوا قصائد من جميع أنحاء شبه الجزيرة بلغة واحدة، كان عملهم هذا متمشيّاً مع عملهم في جعل كثير من هؤلاء الشعراء، بل أكثرهم يعبدون الله ولا يشركون به: إنهم يسحبون على الماضي ظواهر هم أنفسهم يعرفونها".

ويفترض مرجليوث أن الموسيقى لم توجد في العصر الجاهلي. وأنها من مستحدثات العصر الأموي،وأن التسلسل يقضي بأن ينشأ الرقص ثم الموسيقى ثم

---

(١) راجع كتاب «شعراء النصرانية» له.

الشعر، فمن غير المعقول لديه أن يتصور وجود الوزن الشعري عند العرب بهذا النظام وبهذه الغزارة، ويقول: " لقد كانت الممالك الجاهلية التي نعرفها عن طريق النقوش ذات حضارة باسقة، ولكن لا يبدو أنه كان لها شعر، فهل نصدق أن الأعراب غير المتحضرين كان لهم شعر في مثل هذه الصور المركبة كما يُصَدِّقُ بذلك العلماء الأقدمون من المسلمين؟ وبوجه عام نجد أن من المرجح احتمال صواب ما افترضناه وهو: أن كلاً من الشعر والنثر المسجوع كانا في معظمهما مشتقين من القرآن، وأن تلك الجهود الأدبية التي سبقت القرآن كانت أقل فناً منه لا أكثر فناً".

ثم يختم مرجليوث مقالته هذه بقوله: " وإذا كان يبدو من الحكمة ألا نطلق حكماً على مشكلة النظم العربي، وهل يرجع إلى عهد قديم جداً، أو هل هو حادث بعد القرآن؟ - فإن سبب ذلك تلك الصفات المحيِّرة التي نجدها فيما بين أيدينا من أدلة ونحن في أمان حينما نبحث في النقوش، ويصح أن يوثَق بالقرآن في بيان حالة العرب الذين أنزل لهم في زمن النبيِّ، أما في تاريخ الشعر العربي فلا بدّ لنا من الرجوع إلى مصادر أخرى، وهي - في أغلبها - تبحث في أزمنة وأحوال لا عهد لمؤلفيها أنفسهم بها، وكانت تجاربهم وخبرتهم تقودهم إلى تصديق أمور كثيرة ضللتهم بالضرورة - ونحن - حينما نحاكم أقوالهم ونبحث فيها - نستطيع أن نذهب في الشكّ إلى أقصى حدوده، كما نستطيع أن نمضي في التصديق إلى أبعد مذاهبه!"(١).

والحق أن مرجليوث قد جانبه الصواب في دعواه، ولذلك هبَّ بعض المستشرقين يردون عليه، فقد كانت مقالته حافزاً لكتابات كثيرة، لما حوته من آراء جريئة، ومزاعم باطلة، وتصورات تخطئ الواقع التاريخي وحقيقة الحياة الجاهلية، فكان المستشرقون أنفسهم هم الذين ردّوا عليه وناقشوا نظرياته، وحاجّوا مزاعمه.

وكان أول المستشرقين الذين ردّوا على افتراضات مرجليوث هو الأستاذ "شارلي جيمس ليال" في المقدمة التي كتبها للجزء الثاني من المفضليات سنة ١٩١٨م فقد ناقش ما كتبه مرجليوث حول حماد الراوية وخلف الأحمر، فعرض سيرتهما وناقش الروايات التي قيلت حولهما، حيث يقول: " إنه لمن الخطأ العظيم أن نعُدّ هذين الرجلين - حماداً وخلفاً - النموذجين المثاليين للرواة المحترفين الذين كانوا يروون أشعار

---

(١) ما جاء بين الأقواس وهو كلام مرجليوث نقلاً عن «مصادر الشعر الجاهلي» للدكتور ناصر الدين الأسد (ص٣٥٣ - ٣٦٧).

القبائل. فقد كانا كلاهما من أصل فارسي. أما رواة القبائل فكانوا من العرب يختارهم الشعراء ليكونوا الوسيلة التي تحفظ شعرهم وتخلده في صدور القبيلة والأمة العربية بعامة. وكان من هؤلاء أن أخذ الرواة الجامعون في القرنين الأول والثاني الهجريين ما جمعوا من شعر. وأما أن نذهب، كما ذهب أحد العلماء المُحْدَثين[1] إلى أن جميع ما نسميه بالشعر العربي القديم موضوع مَنْحُول، مُستدلين على ذلك بالقصص التي تروى عن حماد وخلف، فهو مذهب مخالف لجميع وجوه هذه القضية واحتمالاتها.

إن حماداً وخلفاً كانا يحاكيان أسلوباً للنظم كان قد قُرِّر واتخذ صورته النهائية زمناً طويلاً قبل الإسلام، وكان قد نظم به شعراء كثيرون كانوا وثنيين، أو غير مسلمين في زمن محمد ثم أسلموا، وقد كثر استخدامه وسُجِّل بالكتابة لعهد شعراء القرن الأول الهجري (مثل جرير والفرزدق والأخطل وذي الرمة،ولم أذكر إلا الذين خَلَّفُوا لنا تراثاً من الشعر كبيراً). فسلسلة الرواية والنقل لم تنقطع: فقد كانت الطبقة الأخيرة من الشعراء على قيد الحياة ينظمون الشعر حينما كان العلماء يدأبون في جمع الشعر وتدوينه. ولا يمكن أن تعترضنا في دراستنا لهؤلاء الشعراء مشكلة الوضع والنحل،لأن رواتهم قد دأبوا على كتابة القصائد التي تُلقَى عليهم لنشرها وتخليدها. أما الشعر الجاهلي فربما حاكاه حماد وخلف، ولكن هذه الحقيقة نفسها (المحاكاة) تدلّ على وجود أصل يُحاكَى. أما أن نذيع أن ما بين أيدينا لا يعدو أن يكون الصورة المحكيَّة،وأنه لم يبق شيء من الأصل نفسه فذلك أمر لا يقرُّه الفهم السليم على ضوء هذه الظروف[2].

فهو يرى أن مَن وضعوا هذا الشعر - على فرض التسليم بذلك - كانوا يحاكون نماذج سابقة،وتقاليد أدبية موروثة قلدوها وحاكَوْها. وأن هذه المحاكاة نفسها تدلّ على وجود أصل كانوا يحاكونه،إذ لا يمكن أن يحاكوا شيئاً لم يبق منه ما يتيح لهم هذه المحاكاة، وإذن لا بد أن يكون هناك شعر جاهلي عرفه الناس بعد الإسلام وحاكوه وقلّدوه. وحقاً دخله انتحال أمثال حماد وخلف،ولكن وراء انتحالهم شعر صحيح، ينبغي أن نهتدي في معرفته بالرواية الوثيقة وصفاته الشخصية والأسلوبية المميزة.

---

(١) يشير إلى مرجليوث.

(٢) مقدمة المفضليات ٢٠ - ٢١ عن مصادر الشعر الجاهلي ص٣٧١.

ثم عاد "ليال"، فتناول موضوع صحة الشعر الجاهلي والردّ على مرجليوث في مقدمته لديوان عبيد بن الأبرص، ونراه يؤكد أن رواية هذا الشعر استمرت حيَّة نشطة من الجاهلية إلى أن دُوِّن نهائياً في العصر العباسي، وقد يكون أصاب قصائده بعض التغيير، ولكن مَن يرجع إلى المعلقات مثلاً يجد لكلّ منها شخصيتها الواضحة التي تنفرد بها، والتي تثبت أنها لصاحبها، وأعاد ما قاله في المقدمة الأولى من أن تقاليد شعر القرن الأول الهجري تلزم بوجود الشعر الجاهلي الذي يشترك معها في التقاليد نفسها، وأيضاً ترى فيه من الألفاظ الغريبة ما لم يكن يستخدم في عصر هؤلاء الرواة ممن دَوَّنوه، مما يدلّ دلالة قاطعة على أنه صحيح في جوهره(١).

وتناول مستشرقون آخرون مهمة الردّ على مرجليوث ودحض مزاعمه. ونكتفي بالإشارة إلى مقالة" جورجيو ليفي دلاّ فيدا" عن "بلاد العرب قبل الإسلام"(٢) التي تحدث فيها عن قيمة المصادر التاريخية للعصر الجاهلي، كما عرض في حديثه للشعر الجاهلي من حيث هو واحد من هذه المصادر.

أما العرب فقد كان أولهم في بحث هذا الموضوع من المُحْدَثين هو المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه" تاريخ آداب العرب" الذي نشره سنة ١٩١١م وقد روى ما قاله القدماء وتابع ابن سلاّم في آرائه دون غلوّ أو شطط" وحصر الموضوع في الدائرة نفسها التي حصره فيها القدماء: لم يُحَمِّل نصّاً أكثر مما يحتمل، ولم يعتسف الطريق اعتسافاً إلى الاستنتاج والاستنباط إلى الظنّ والافتراض، ولم يجعل من الخبر الواحد قاعدة عامة، ولا من الحالات الفردية نظرية شاملة(٣).

ثم تناول الدكتور طه حسين الحديث في هذا الموضوع، فألَّفَ فيه كتابه "في الشعر الجاهلي" سنة ١٩٢٦م فأثار ضجة كبرى لما فيه من آراء استشراقية وقحة يتنافر بعضها مع الدين ويضاد ما فيه،وقد صُودر بأمر النيابة العامة، فاضطر إلى أن يحذف منه ويزيد فيه ويوسعه،ثم يصدره سنة ١٩٢٧م بعنوان" في الأدب الجاهلي" وقد استغل الدكتور طه حسين ما ذكره ابن سلاّم استغلالاً سيئاً، وسار في خط مستقيم مع استنتاجات وآراء مرجليوث، وتوسع فيها وعمم الأحكام الفردية، واتخذ الأمور الخاصّة قواعد عامة، حتى خرج برأي جديد هو صياغة جديدة لرأي مرجليوث.

---

(١) العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص١٦٨، ومصادر الشعر الجاهلي ص٣٧٢ - ٣٧٤.

(٢) ص٤١ - ٤٨ سنة ١٩٤٤، ينظر مصادر الشعر الجاهلي ص٣٧٤ - ٣٧٦.

(٣) مصادر الشعر الجاهلي ص٣٧٩.

والدكتور طه حسين يصور فكرته التي يقدمها في كتابه بقوله: "وأول شيءٍ أفاجؤك به في هذا الحديث هو أنني شككت في قيمة الأدب الجاهلي، وأَلححْتُ في الشكّ أو قل ألحَّ عليَّ الشكُّ، فأخذت أبحث وأفكر، وأقرأ وأتدبر، حتى انتهى بي هذا كلّه إلى شيء إلا يكن يقيناً فهو قريب من اليقين. ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين، ولا أكاد أشكّ في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جداً لا يمثل شيئاً ولا يدلّ على شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي. وأنا أقدر النتائج الخطيرة لهذه النظرية، ولكني مع ذلك لا أتردد في إثباتها وإذاعتها، ولا أَضعُف عن أن أعلن ذلك إليك وإلى غيرك من القراء، أما ما تقرؤه على أنه شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة فليس من شعر هؤلاء الناس في شيء، وإنما هو نحل الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو اختراع المفسرين والمُحَدِّثين والمتكلمين"(١).

ثم مضى يعدد الأسباب التي دفعته إلى الشكِّ في الشعر الجاهلي، إذ وجد أنه لا يمثل الحياة الجاهلية الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية تمثيلاً دقيقاً، وأيضاً وجد أنه لا يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه، ولا لهجات القبائل المختلفة،وأن العلماء قد استشهدوا به على ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف، وأنه قد وصل إلينا عن طريق الرواية الشفوية لا عن طريق التدوين.

ثم ينتقل إلى الحديث عن أسباب الوضع والنحل فيرجعها إلى:

السياسة: ويريد بها العصبية القبلية مثل ما كان بين قريش والأنصار من العداء،وما كان بين القبائل من أحقاد قديمة،ومع ذلك نجد الأشعار التي وقف عندها الدكتور طه حسين ليست جميعها جاهلية وإنما هي إسلامية.

وقد تطرق إلى الحديث عن الشعر الذي قيل قبيل الإسلام تبشيراً ببعثة الرسولﷺ، أو ما جاء عند المفسرين في ذكر الأمم السابقة، وتشكك فيما أضيف إلى

---

(١) في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين ص٦٥ دار المعارف بمصر ـ الطبعة التاسعة سنة ١٩٦٨م.

شعراء من اليهود أو النصارى من أشعار، وكذلك ما أضيف إلى عدي بن زيد العبادي، والواقع أن القدماء لم يكونوا في غفلة عن ذلك[1].

وكذلك تحدث عن القصص وما كانوا يضعون من الشعر لتزيين القصص والأخبار، كما تحدث عن أثر ذلك في وضع الشعر، وقد مر بنا تنبيه ابن سلاّم إلى ذلك عند حديثه عن ابن إسحاق وأضرابه.

ثم تحدث عن الشعوبية والخصومة بين العرب والموالي،وأن هؤلاء الشعوبيين قد ابتدعوا أخباراً وأشعاراً وأضافوها إلى الجاهليين والإسلاميين، وكذلك فعل خصومهم. وقد تشكك طه حسين في هذا الشعر الكثير الذي يضيفه الجاحظ في مصنفه "الحيوان" ليدل على اتساع معرفتهم في هذا العلم: علم الحيوان عصبية لهم، والحقّ أن هذا لم يكن من أهداف الجاحظ، فهو نفسه ينفي عنهم العلم الدقيق بالحيوان، إذ يقول بأن معارفهم فيه معارف أولية، وأنه إنما دار في أشعارهم لأنه كان مبثوثاً تحت أعينهم وأبصارهم في ديارهم[2].

وتحدث كذلك عن فساد مروءة بعض الرواة مثل حماد وخلف وأبي عمرو الشيباني وأنهم كانوا ينحلون الأشعار ويعبثون بالشعر، وعن طائفة أخرى اتخذت الرواية مكسباً وأولئك هم الأعراب الذين كان يذهب إليهم رواة الأمصار يسألونهم عن الشعر والغريب.

وواضح أن الدكتور طه حسين عندما يردد ما نصّ عليه العلماء السابقون من قضايا يريد أن يتوسل بها لنقض الشعر الجاهلي جميعه، وهي إنما تنقض جوانب منه،وينبغي أن نقف عندها، وألا نذهب مذهب التعميم، فإن القدماء إنما ذكروا هذا كلّه ليدلوا على ما أحاطوا به رواية الشعر الجاهلي من سياج قوي،حتى نميز الصحيح من الزائف والوثيق من المنحول[3].

ولو مضينا معه في كتابه لرأيناه يطبق نظريته على الشعراء، فيشكّ في شعر امرئ القيس وعلقمة الفحل وعَبيد بن الأبرص وعمرو بن قميئة والمهلهل وعمرو بن كلثوم

---

(١) العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص١٧٣.

(٢) الحيوان ٦: ٢٩ وما بعدها وانظر العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص١٧٤.

(٣) العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص١٧٤.

والحارث بن حَلِّزَة وطرفة والمتلمس والأعشى. وحجته في ذلك اختلاف الرواة في أسمائهم وفي أخبار حياتهم. وأما الشعر المضري فلا يخامره شكّ في أن كثرته قد ضاعت غير أنه يقول: "لكننا لا نشك أيضاً في أن هذا الشعر قد ذهب وضاعت كثرته ولم يبق لنا منه إلا شيء قليل جداً لا يكاد يمثل شيئاً، وهذا المقدار القليل الذي بقي لنا من شعر مضر قد اضطرب وكثر فيه الخلط والتكلف والنّحل،حتى أصبح من العسير جداً، إن لم يكن من المستحيل، تخليصه وتصفيته[1].

وقد أثارت آراء طه حسين الرأي العام الأدبي والديني، فانبرى للرد عليه ومناقشته وتفنيده مجموعة من العلماء والأدباء حيث ألفوا كتباً في الرد عليه من أهمها:

١-النقد التحليلي لكتاب "في الأدب الجاهلي" للأستاذ محمد أحمد الغمراوي.

٢- نقض كتاب "في الشعر الجاهلي" للأستاذ الأكبر محمد الخضر حسين.

٣- نقد كتاب " في الشعر الجاهلي" للأستاذ محمد فريد وجدي.

٤- الشهاب الراصد للأستاذ محمد لطفي جمعة.

٥- تحت راية القرآن للأستاذ مصطفى صادق الرافعي.

ولن نكرر الأقوال التي رددها الباحثون والعلماء في معرض الردّ على الدكتور طه حسين وتفنيد مزاعمه[2]، لأن ذلك أمر قد فرغ منه الكاتبون، واستقر على ضوء الدراسات الحديثة في تأصيل الشعر الجاهلي ونفي الموضوع عنه.

ولكن يكفي أن نقول: إن الشعر الجاهلي ربما دخله الوضع وتسرب إليه الانتحال بسبب كثير من الدوافع والأغراض التي يتوخاها الواضعون، ولكن هذا لا يدفعنا أبداً إلى أن نضع هذا التراث العربي كلّه موضع الشكّ والارتياب، وأن ندعي أنه لا يمثل الناحية الدينية، ولا ينم عن الحياة العقلية أو السياسية أو الاقتصادية، وأن نجعل من وحدة لهجته دليلاً بيناً على زيفه وكذبه. كما يدعي المسرفون والمغرضون، الذين قالوا: إنه شعر لا تبدو فيه جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والدينية، وقد جاء بلغة

---

(١) في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين ص٢٤٨.

(٢) انظر مصادر الشعر الجاهلي ص٤١١ وما بعدها.

واحدة ولهجة واحدة، فلم يظهر فيه أثر للغة أهل الجنوب من حِمْيَر،ولا لغة أهل الشمال من عدنان، فالمنطق واحد واللغة واحدة مما يشهد بأنه موضوعٌ مُخْتَلَقٌ!

أما أنه لا يمثل الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية فيكفي في الرد على هذا الزعم إلقاء نظرة عاجلة على ديوان العرب لنرى في أشعارهم صور الصحراء بما فيها من جفاف وقحط، أو عواصف ورمال وكثبان،وما يبدو فيها من بعر الآرام، ومراتع الظباء فهو شعر يمثل حياتهم، ويرسم ألوان معيشتهم، ويروي عاداتهم، ويتحدث عن أديانهم، ويصف بيئتهم، ولون ثقافتهم، فلا شكّ أن الشعر الجاهلي يصف البيئة الجاهلية وصفاً دقيقاً، من حيوان ونبات وأرض وجبال ووديان وقرى،ومن رياح وأمطار وبرق ورعد . . . إلخ، وغير ذلك مما ينسجم مع بيئتهم،ويلتئم مع طبيعتهم. وفي كتاب الأصنام لابن الكلبي أشعار كثيرة تصور الوثنية التي كانت شائعة فيهم ومتغَلْغِلَةً بينهم.

وأما أن الشعر بلغة واحدة فمن المعروف أن اللغة صارت إلى وحدة لسانية قبل الإسلام بفترة طويلة،وأن الشعراء كانوا ينشدون في المحافل والأسواق قصائدهم بلغة واحدة يصيخ إليها الناس، ويحكم عليها حكام الشعر ونقدة الكلام. فليس لتلك اللهجات إذ ذاك وضع في الوجود، ولا مكان في منطق الناس، وليست هناك فروق بين لغة الشماليين ولغة الجنوبيين. فقد انقرضت الحميرية التي كان يقول عنها أبو عمرو ابن العلاء: "ما لِسانُ حِمْيَر وأقاصِي اليمن بلساننا، ولا عربيتّهم بعربيتنا"(١) ولم يكن لها وجود في عَهد أبي عمرو ولا سمع إلا أخبارها. فاللهجات التي يَدَّعُونَ وجودها، ويزعمون أنَّها لم تُمثَّل في هذا الشعر قد انعدمت وذابت قبل الإسلام. وإلا فكيف نزل القرآن بهذه اللهجة التي يفهمها الجميع، وينطق بها الكلّ في سهولة ويسر؟ وكيف كان يتحاكم الشعراء من مختلف القبائل والعشائر إلى الحَكَم الذي كان يجلس في عكاظ وغيرها من الأسواق والمحافل الأدبية؟ وكيف يستطيع الوضَّاعون المختلفون أن يضعوا ويخترعوا بلغة تغاير لغات الشعراء، أو بلهجة تختلف مع لهجاتهم. أليس ذلك الشعر إذن يحمل في ثناياه دليل وضعه وإمارة اختلاقه(٢).

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلاّم ص٦.

(٢) انظر الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام للدكتور عبد الحميد المسلوت. ص٢١٦.

ثم إن الشكَّ في الشعر الجاهلي كلّه،والارتياب فيما وصل إلينا من وقائع وأخبار، ومن أيام وحروب اعتماداً على أن هذه الآثار تروى من الذاكرة، وتنقل من الفكر بالرواية الشفهية، إن ذلك يعد إسرافاً في الحكم، واعتسافاً في الرأي، وإمعاناً في سلب المجود ومحو الفضائل، فضلاً عن أنه لا يمكن تكذيب أمة بأسرها، خاصّة تلك التي حملت أعلام الحقّ، ورفعت بنود الصدق، وعملت جاهدة على أن تتمم في الناس مكارم الأخلاق.

أما أن هناك نحلاً ووضعاً فذلك مما لا شكّ فيه. وهو أمر لم يهمله المتقدمون، ولم يفت الباحثين في العصر الحديث. ولقد قال فيه ابن سلاّم: "وليس يشكل على أهل العلم ما زاد الرواة ولا ما وضع المولدون"(١) لقد كان هناك وضع وانتحال، ولعل في ذلك دليلاً بَيِّناً على أنه كان هناك بين يدي الواضعين شعر احتذاه العرب،وجروا على نهجه وسُنَّته.

ومن هذا كله ندرك أن الشعر الجاهلي فيه الصحيح الذي لا سبيل إلى نكرانه أو رفضه أو الطعن فيه، والمنحول الذي لا بد أن يَفطَن إليه أولو الفكر ونقدة الأشعار والأدباء، وقد فطن أدباؤهم ونقدتهم لذلك منذ عهد بعيد.

يقول الدكتور شوقي ضيف: "الحقّ أن الشعر الجاهلي فيه موضوع كثير،غير أن ذلك لم يكن غائباً عن القدماء، فقد عرضوه على نقد شديد، تناولوا به رواته من جهة وصيغه وألفاظه من جهة ثانية، أو بعبارة أخرى عرضوه على نقد داخلي وخارجي دقيق. ومعنى ذلك أنهم أحاطوه بسياج محكم من التحريِّ والتثبُّت، فكان ينبغي ألا يبالغ المُحْدَثون من أمثال مرجليوث وطه حسين في الشكّ فيه مبالغةً تنتهي إلى رفضه، إنما نشكّ حقّا فيما يشكّ فيه القدماء ونرفضه، أما ما وثقوه ورواه أثباتهم من مثل أبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والأصمعي وأبي زيد فحَرِيٌّ بنا أن نقبله ما داموا قد أجمعوا على صحته. ومع ذلك ينبغي أن نُخْضِعَهُ للامتحان وأن نرفض بعضَ ما رووه على أسس علمية منهجية لا لمجرد الظن، كأنْ يُرْوَى لشاعرٍ شعر لا يتصل بظروفه التاريخية، أو تجري فيه أسماء مواضع بعيدة عن موطن قبيلته، أو يضاف إليه شعر إسلاميّ النزعة، ونحو ذلك مما يجعلنا نلمس الوضع لمساً"(٢).

---

(١) طبقات الشعراء ص١٦.

(٢) العصر الجاهلي ص١٧٥.

والواقع أنّ الدكتور طه حسين في نظريته المغرضة لم يأت بجديدٍ، وإنما كان يكرر ما قاله أساتذته المستشرقون الذين يهدفون إلى التشكيك في القرآن، والطعن في الإسلام. ومن الحقّ أنه "جعل من نفسه بَبَّغاء تُرَدِّدُ - في وفاء - صوتَ سيِّدها الذي ربَّاها ونمَّاها، وبأساليب التضليل رواها، حتى أصبح للإستشراق نابعة، وفي ميدان البحث إمعَّة، يقول ما يقول أنسباؤه وأصهاره المبشرون ورجال الإرساليات - ولو كان طعناً في القرآن ورسول الإسلام، ونشراً للزندقة والإلحاد بين أهل عصره - بحجة البحث العلمي الذي هو منه براء"(١).

ونحن لا ننكر أنه كان للمستشرقين أثرهم في اللغة والأدب، لا سيما في نشر نفائس المخطوطات، وكذا ما اشتهروا به من التحقيقات اللغوية ثم ما كان لهم من فضلٍ في تأليف دائرة المعارف الإسلامية، التي تحتوي على تراجم للرجال، وكذا تاريخ الأماكن والبلاد وأهم الموضوعات الإسلامية وغير ذلك، إلا أن "بعضهم كان يصطنع الإنصاف ويحاول أن يلبس مسوح الرهبان والقديسين ليدوفَ السّم في العسل، وهم على كلِّ حالٍ حاقدون على العرب وتراثهم، دخلاء على لغتهم وآدابهم لا يفهمون دقائق أسرارها، ولا يستطيعون النفاذ إلى مواطن جمالها، ولا يتفطنون لخفايا النصوص، ليلحقوا النظير بنظيره والشبيه بشبيهه. وإن خُيِّل لبعض قصار النظر أن قولَهم الفصل وأن رأيهم الحكم لا معدل له ولا معقب عليه. وما أشبه هجومهم على العرب وآدابهم وتنكرهم لمجهودهم وتراثهم بهجوم جيوشهم على قوى العرب وحضارة العرب ومدنية العرب في الحروب الصليبية الغادرة.

لقد نظر المستشرقون في آداب العرب بعين حاقدة وقلب مدخول. فإذا برز في العربية شاعر بَذّ الشعراء بمعانية الأبكار، وأخيلته الرائعة، فالفضل لما يجري في عروقه من دم غير عربي. وإذا برع شاعر عربي صليبةً فأكبر الفضل في هذا راجع لما صادفه أو شاهده من مناظر ومشاهد وصور لا تمت للعربية بصلة. وإذا بَهَرَتْ عقولهم وسحرت ألبابهم ثروة عربية جاهلية قالوا: لا، هذه ثروة إسلامية أُلحقت ظلماً بالجاهلية، وهكذا مما يشيع في كتاباتهم ويتناثر ضمن آرائهم مما قد يخدع المغرورين، ويروج عند التافهين. وقضية انتحال الشعر الجاهلي من القضايا التي

---

(١) دراسات في الأدب العباسي للدكتور عبد السلام سرحان ص٢٤٤.

درسها المستشرقون وكتبوا فيها بنفوس حاقدة موتورة، فخلقوا حولها ظلالاً من الشكوك، وخطوطاً من الخرافات والأكاذيب يمكن أن تروج الباطل ويستند إليها الواهمون.[1]

على أن المستشرقين في جملتهم ـ ما عدا القليل النادر منهم ـ لغويون أو حفاظ قاموسيون[2] وهم ليسوا من محبي الأدب والفن بلغاتهم فضلاً عن اللغة العربية التي تعلموها ولم يعيشوا بها أو يعيشوا فيها.

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: "فإذا صرفنا النظر عن عمل الكثيرين منهم في دراسة اللغة لأغراض دينية أو سياسية فهم قبلَ كلّ شيء مؤرخون أو أصحاب إحصاء وتسجيل لم يعهد فيهم أنهم حجة في آداب بلادهم. فهم أحرى ألا يكونوا عندنا حجة في آدابنا العربية، وبخاصة في مسائل الذوق الفني واختيار الشعر والحكم على الشعراء.

وهم بعد ذلك يجهلون روح اللغة ويجهلون معاني الكلمات، وليس من الشائع بينهم أن يتوسعوا في دراسة التاريخ العام للبلاد الشرقية إلى جانب دراسة اللغة، فيكثر عندهم من أجل ذلك أن يخطئوا فَهْمَ أطوارِ اللغة جهلاً منهم بأطوار التاريخ وبما يستلزمه من موضوعات الشعر والخطابة وغيرها من التعبيرات القومية"[3].

وقد مثل العقاد بأمثلة كثيرة لجهل المستشرقين باللغة والذوق الأدبي وشواهد التضمين والاقتباس[4].

وسيأتي في الفصل الأول من الباب الرابع حديثنا مفصلاً عن دواوين القبائل، وأن العلماء الرواة كانوا يتنافسون في جمع أشعار القبائل وتدوينها في كتب خاصة،وأنه لم يصل إلينا إلا أشعار هُذَيل التي رواها السُّكَّري، ومن الحقّ أنها تعدّ غاية في النَّفاسة، لا لأنه يضمنها أخباراً وشروحاً فحسب، بل أيضاً لأنه يقفنا وقوفاً دقيقاً على مصادره،

---

(١) نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي للدكتور عبد الحميد المسلوت ص٧٠ مطبعة دار القلم بالقاهرة.

(٢) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب للأستاذ عباس محمود العقاد ص٩ مطابع دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٠.

(٣) اللغة الشاعرة للعقاد ص١١٤ ـ مطبعة الاستقلال الكبرى.

(٤) اللغة الشاعرة للعقاد ص١٢٦ وما بعدها.

إذ يذكر دائماً الإسناد في القصيدة وألفاظها وأبياتها، مثبتاً ما اختلف فيه الرواة البصريون وعلى رأسهم الأصمعي والكوفيون وعلى رأسهم ابن الأعرابي وأبو عمرو الشيباني ومن جاء بعدهم من البغداديين مثل عبد الله بن إبراهيم الجمحيّ وغيرهم.

ولقد كان السّكّريُّ أهم راوٍ ظهر في النصف الثاني من القرن الثالث[1] فقد رويت عنه دواوين كثيرة. "وكان ثقة صادقاً يقرئ القرآن، وانتشر عنه من كتب الأدب ما لم ينتشر عن أحد من نظرائه،وكان إذا جمع جمعاً فهو الغاية في الاستيعاب والكثرة"[2].

ومن المعروف أن أمثال المفضليات والأصمعيات والمعلقات وجمهرة أشعار العرب هي من أهم مصادر الشعر الجاهلي الموثوق بها إلى حدّ بعيد. وقد ذكر الدكتور شوقي ضيف: "أن تلك القطع التي رواها السّكّري من ديوان هُذَيل لا تقلّ ثقة ولا قيمة تاريخية عن المفضليات والأصمعيات"[3].

على أن هناك جانباً آخر يوجه المسار المنصف في بحث قضية الانتحال، التي كثر فيها القيل والقال!!!... وذلك أن هذا الشعر لو كان موضوعاً ـ وخاصّة في زمن التدوين والعلم والحضارة ـ لما حدث هذا التغاير البَيِّن في رواية الأبيات والكلمات، وهذا الاختلاف وحَده كافٍ في توثيق ذلك التراث والاعتداد به،والاعتراف بواقعيته التي لا تقبل الجدلَ ولا المماراة من أي إنسان كائناً مَن كان أو ما كان.

على أن هؤلاء الذين رماهم مرجليوث وطه حسين بوضع هذه الأشعار،وابتداع تلك القصائد ونسبتها كذباً وزوراً إلى شعراء موهومين، كان الأجدر بهم والأحقّ لهم، والأخلق بشاعريتهم الصَّناع أن تعزف على قيثار الشعر الإنشائي ـ لا الروائي ـ ليكونوا من أوائل الشعراء المنشئين الذين يوجهون أشعارهم إلى مدح الخلفاء والوزراء والكبراء والعظماء، ويضمَنوا الرغَد والبُلَهْنِيَةَ وحياة البذخ والسرف والثراء.

لقد كان أحرى بهم وبفنهم العظيم أن يشدُّوا أوتار شاعريتهم، ويحركوا أناملهم الأدبية على الأعواد كي يخرجوا للناس ولأنفسهم تراثاً شعرياً خاصاً جميلاً يضمن لهم الخلود في سجلات العظماء من الأدباء والشعراء.

---

(١) العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص١٦٣.

(٢) معجم الأدباء ٣/ ٦٢.

(٣) العصر الجاهلي ص١٨١.

نعم كان في مكنتهم أن يفعلوا ذلك، ويَعْظُمُوا هنالك بدل أن يتسكَّعُوا في أزقة الشعر والأدب، ويختلقوا شعراً ينسبونه إلى هذا أو ذاك من الشعراء المعلومين أو الموهوبين!!!.

ألا إن الحقّ أبلج والباطل لجلج، والأمر جِدّ واضح تحت سنا البرق اللائح ومع التموجات القوية لأضواء الحياة.

ومن هنا نستطيع أن نحكم بأنَّ هذه الحملة المسعورة ضد الشعر الجاهلي من أمثال المستشرق المتعصب مرجليوث وربيبه الوفي الدكتور طه حسين ليست سوى زوبعة في فنجان، أريد بها الطعن في القرآن، وإثبات أنه من وضع محمد بن عبد الله بطريقة ماكرة ـ وإن كانت مكشوفة ـ لُحْمَتُها وسُدَاها أن القرآن هو أصدق وأوثق الآثار الأدبية الجاهلية التي يُطْمَأنّ إليها كل الاطمئنان، وهذا يستلزم أنه من وضع البشر، لا من وحي السماء: ﴿**كَبُرَتْ كلمةً تَخْرُجُ من أفواهِهِم إن يقولونَ إلا كذباً**﴾[الكهف: ٥] صدق الله العظيم.